

السفن والمراكب في بغداد

في عهد العباسيين

Les Embarcations sous les Abbassides.

منذ قامت بغداد في جوار الفرات ، وتوسدت ضفتي دجلة بعد ان نازعت دمشق ، اعنت السلطنة واستقلت دونها بعرش الخلافة وسرير الملك ، تعددت فيها السفن والمراكب وتنوعت في شطوطها الزوارق والقوارب ، لاحتياج السكان اليها في الجانبين الشرقي والغربي المعبور من جهة الى اخرى ؛ فضلا عن الخروج للنفرج والتسعة ، وارتداد اماكن القصف والهبوط ، فاتخذها كل ذي سعة وتنافس القوم في اقتنائها على اختلاف في اشكالها وضروبها ، وتباين في اوضاعها ورسومها ، قال البشاري : « والناس ببغداد يذهبون ويحيثون ويعبرون في السفن ونرى لهم جليلة وضوضاء وثلاثا طيب ببغداد في ذلك الشط » (احسن التقاسيم ص ١٢٤) .

ولذلك اقبل المرتزقون على الملاحة وتزاحموا عليها حتى اصبحوا اممة لوحدهم يقضهم وقضيضهم . ولما اعرس المأمون ببوران قال الشاشتي « كان يجري في جملة الجرايات في كل يوم على نيف وثلاثين الف سلاح » (برلين كتاب الديارات ع ٨٣٢١ ص ٦٨) وكفى بهذا القول دليلا على ما بلغت اليه الملاحة في ذلك العصر .

ولما استغل الملك وتلفقت سبيل الثروة على بغداد فاصبحت « ام الدنيا وسيدة البلاد » (مرصد الاطلاع ١ : ١٦٣) عمد اهل الترف والبنخ الى هذه السفن فتمتوا في بنائها واتقانها وابتدعوا ما شئت ابهة السلطان ويطر الفنى في تطويرها وتزيينها فاخرجوها على صور شتى وحاكوا بها خلقة الحيوان والطير كالثلث والليل والعقاب والغراب والجراد والدلفين . وقد حفظ لنا ابو نواس بعض هذه الاسماء فقال يمدح الامين :

الا نرى ما أعطي الامين اعطي ما لم نره العيون

ولم تكن تظنه الظنون الليث والعقاب والدلفين (١)
ولكن لشؤم الطالع الذي تولى تاريخ الصناعات في الشرق العربي لم يتم
الينا في ما بأيدينا من كتب الأدب والتاريخ شي من صنعة هذه المراكب وتفصيل
عمارتها مع ما كان لها وقتئذ من الخطورة وجلالة الخطب وتعدد دور الصناعة
لها في الأبله ومصر وعكا وصور . فلا بد لنا من الاكتفاء ببعض الاشارات التي
نلمحها في الشعر لذلك العهد وان كانت لا تدل على كبير امر . وقد وجدت الجانب
منها ذكرا لا يخلو من بعض الفائدة في شعر ابي نواس مرآة البيئة العباسية
وهو قوله يمدح الامين وصف به حراقتي الليث والعقاب :

سخر الله للامين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ماركبه سار برا سار في الماء راكبا ليث غاب
اسد باسط ذراعيه يمدو اهرت الشدق كالحلح الانياب
لا يمانيه باللجام ولا السوط م ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس اذ رأوك على صو رة ليث يمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك مرت عليه كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطائر في السماء اذا ما م استعجلوها لجيئت وذهاب
وقال يمدحه ايضا :

قد ركب الدلفين بئر الدجي مقتحما في الماء قد لججا
لم تر عيني مثله مركبا احسن ان سار وان هرجا
اذا استحثته مجاذيفه اضيق فوق الماء او هملجا

قال الاصمعياني راوي الديوان قال ابو هفان « اتخذ محمد (الامين) الدلفين
والفرايصة والجرادينة والكوثرية » [ص ١٧٦ - ١٧٧]

ومما يزيد في نكايته هذا الداء . داء سكوت الكتبة والمؤرخين من كل
ما يتعلق بللمن والصناعات والحرف والتجارات ، انه لم يتصد احد من المشتغلين
باللغة لافراد رسالة او مقالة يستوعب فيها كل اسماء المراكب والسفن وادواتها

(١) باريس ديوان ابي نواس رواية الاصمعياني ع ٤٨٢٩ ص ١٧٧

المتخذة في الاسلام مع شدة الاقتدار الى مثلها اليوم لتفهم بعض التون والاعخبار. ولو شاء بعض رواد الآثار العربية تتبع الفاظها المحدثه حتى في مظاهرها من المعاجم وكتب النخيل والعرب والمولد لغاته منها جانب غير يسير يراد المذكور في بعض كتب التواريخ والبلدان والادب على غير صحة ولا ضبط . وقد سرد منها البشاري وحده نيفا وثلاثين اسما غلب التعريف والحفاء على اكثرها ولكنه لم ينص على موضع استعمال كل منها [احسن التقاسيم ص ٣١ - ٣٢]

فلا بأس اذن ان انقل هنا ما يحضرنى منها مما مر بي انشاء مطالعائي مقتصرا فيه على ما كان في بغداد وحدها في ما عدا ما تقدم ذكره منها وهي : الحرافقة . والطيار ، والشذاة ، والشذاة ، والشذاة ، والزرب ، والسميرة والسماوية ، والزلال ، والشبارة ، والحديدي .

ومما يدل تسميها على عراقيتها «الواسطية» نسبة الى واسط ذكرها البشاري ولا شك انها كانت نرد احيانا بغداد . ويلحق بها المراكب الخيطية كانت تعمل بالابلة ويركب فيها الى الصين [كتاب البلدان للياقوت ص ٣٦٠] . وهذا لك اسما اخر لم اثبتها او لم تتصل بنا . وكل هذا الذي نقلته منها صحيح اللفظ مضبوط ولدي شواهد عليه لا ارى حاجة الى ايرادها لعدم الخلاف فيها ما خلا « الحديدي » نية عليه صاحب السعادة احمد باشا تيمور في مقاله الممنعة في تفسير الالفاظ العباسية . قال وهو نوع من السفن ولم اقف على وصفه ولا اعلم ان كان صحيح اللفظ او محرفا [مجلة المجمع العربي ١٩٢٣ : ٢٤٦] فلست ركه عليه حضرة الاب انستاس قال واطن الصحيح هو الجدي [المجلة المذكورة ص ٣٨٢] ولذلك استصحى حضرة الاب عفوا في نقل بعض الشواهد على صحة لفظ الحديدي كما حكاه التوحي في نشوار المحاضرة [ص ٢٠٦]

قال محمد بن عبد الملك الهمداني في الجزء الاول من تكملة تاريخ الطبري [نسخة خزانة باريس ع ١٤٦٩]

لما صار ابن رائق بالدائن امره الراضي بالانحدار الى واسط واضافها الى اعماله من البصرة وغيره فكان ابن ياقوت برامهرمز . غازما على التوجه الى اصبهان

« فكتب بالاصماد فالتقى ابن ياقوت في طيارة وابن رائق في حديديهم فلم
كل واحد منهما على صاحبه ايماء من غير قيام » [ص ٥٦]
وقال بعد ذلك :

« ودخل البريدي بغداد ... لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ٣٢٩ ...
وكان معي من الزبازب ، والطيارات ، والحديديات ، والشذائات ما لا يحصى »
[ص ٧٩]

وقال ايضا في حوادث سنة ٣٦٤ :
« وراسل عضد الدولة الطائع لله بابي محمد بن معروف حتى استعاد ودخل
الى بغداد في حديدي جلس على سطحه وخرج عضد الدولة في طيارة فتلقاه قريبا
من قطعة ام جعفر وصعد الحديدي وقبل البساط ويد الطائع لله » [ص ١٤٣]
وممن ذكر الحديدي ايضا غير مرة ابن الفوطي في تاريخه المحفوظ في
الحزنة التيمورية ومن الميث الاطالة بنقله . فيكون قد توارد ثلاثة من العلماء
والمؤرخين على استعمال هذا اللفظ : التوخي ، والهمداني ، وابن الفوطي . ومثل
هذا الاجماع كاف في مقام الاستشهاد . ولعل الحديدي سمي كذلك لدخول
الحديدي في بنائه .

وقد سبق الى الظن ان اتخاذ السفن في بغداد كان مباحا وطلبا لمن شاء
كيف شاء ولم تكن قط حسيبة عليه كسائر الصناعات والحرف . ولكن يوضح
شهادة الشاشني ان بناء المراكب كان مقيدا محصورا ليس في حملته فقط بل في
تحديد طولها وعرضها . وهو قول :

« انتهى بعض ولد الرشيد التفرج والتنزه في الماء فاراد ان يبني زلالا
يجلس فيه فمنعه اسحق (ابن ابراهيم الطاهري خليفة السلطان ببغداد) وقال
هذا شيء لا يحب ان نعمل مثله إلا بأمر امير المؤمنين واذنه فكتب الى المعتمد
يستأذنه في ذلك فخرج الأمر الى اسحق باطلاعه له . فكتب اسحق : « ورد
علي كتاب من امير المؤمنين باطلاق بناء زلال لم يجد لي طول ولاعرضه فوقفت
امرا الى ان استطلع الرأي في ذلك » فكتب اليه يحمده على احتياطه ويحد
له ذرع الزلال » [الديارات ص ١٤ - ١٥]

وهذا من أدل الدلائل على ما كانت عليه رسوم الولاية ونظام المعيشة والصناعات في الصدر الأول من العصر العباسي من الاحتياط والضبط وقلة الفوضى في أوقات الدعة والسكون وهو ما يبعث على التحسر والأسف أن لا يكون تعرض أحد من السلف لتدوين خصائص هذه الحضارة الباهرة التي تفردت بها على ضفائي دجلة والنيل الدولتان العباسية في بغداد والفاطمية في مصر .

اقالون [فرنسة] حبيب الزيات

(لغة العرب) : — من يطلع على هذه المقالة يفتر علم الكاتب . وهو من الراسخي القدم في التحقيق والتدقيق . ونحن نشكره على هذه المقالة البديعة ونستزiede في هذا الموضوع واشباهه . اما المركب المسمى « الحديدي » فلقد اصاب حضرة المحز . وكنا نحن قد وجدنا « الجدي » في كتاب خطي كان عندنا يقول صاحب ما هذا حرفه : قال ابو القاسم : يحتاج ان تعرف الوان المراكب من السفن ، والسمريات ، والمراكب العماليات ، والزبازب ، والطيارات والشذوات ، والبرمات ، والحراقات ، والزلالات ، والمناسات (كذا) . والكمندوريات ، والبلوع . والطبطباب ، والحيطيات ، والجدي ، والجاسوس ، والورحيات ، والقوارب ، والشنلي ، والجعفریات ، والزرو .

وكنا قد ظننا ان « الجدي » هي من الروايات الصحيحة ، لمشابهة هذا الاسم لاسم الحيوان المعروف ، لكننا نرى الآن ان الحديدي هو الصحيح ولم يبق ذلك في هذه التسمية بعد ان ذكر لنا الكاتب المحقق الشهادات العديدة التي اوردتها .

(استدراك بخصوص آل قشعم)

قلت في هذه المجلة (١٣٩ : ٥) ان اول ذكر عرفته عن آل قشعم في العراق لا يتعدى العقد الثاني من القرن الحادي عشر وفاتني ان كلشن خلفا الذي نقلت عنه الخبر كان قد ذكرهم قبل ذلك . وهذا تعريب ملحق :

« ولما دخلت سنة ٩٥٣ (١٥٤٦ م) سار الوالي الوزير (اياس باشا والي بغداد قاصدا البصرة) فزار بطريقه الروضة الرضية لغاتح خبير (علي بن ابي طالب) لاستحصاال الاستعداد للفتح والظفر ثم حرك الوالي ركابه الى البصرة بعد ان اتلف شيخ آل قشعم الذي كان قد سلك طريق الطغيان مؤذيا الناس في تلك الانحاء . . . »

يعقوب نعوم سر كيس